ندوة الإصلاح والإصلاحيون في بلدان المغرب العربي الحديث

يوم 06 آفريل 2016

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة –

كلية الآداب والحضارة الإسلامية

عنوان المداخلة: "صالح بن مهنا والإصلاح (1256هـ- 1840م/ 1328 هـ- 1910م):

أ.د/ رابح دوب

هو أبو البركات صالح بن محمد بن محمد بن مهنا القسنطيني وُلد في قرية العشرة (كركرة) بضواحي مدينة سكيكدة، وليس لدينا تاريخ دقيق لميلاده لتضارب التواريخ ولكن نتأكد أنّه وُلد تقريبا في 1840م أو بعد ذلك بقليل.

لا نعرف عن مرحلته التّعليميّة الأولى أي شيء، لأنّه لم يُشِر إليها في كتبه الكثيرة، ولكنّه بالتأكيد كانت هنا في الجزائر، وبعد أن حفظ القرآن وتزوّد بذخيرة علميّة أهّلته للجلوس في حلقات كبار الشيوخ، شدّ الرّحال إلى جامع الزيتونة بتونس، ولا ندري متى وصل إلى تونس ولكنّه بالتّأكيد كان هناك في 1862م، ولا ندري أيضا كم سنة مكث في تونس ولكنّها كانت كافية للحصول على زاد علمي كبير ربما يكون قد تحصل على العالميّة أو على التّطويع، ثم شدّ الرّحال مرّة أخرى إلى القاهرة إلى الأزهر الشّريف.

قد جلس في حلقات عدد من شيوخ الزيتونة وأهم هؤلاء جميعا عبد الله الدّراجي وهو الجزائري الوحيد من كلّ أولئك، وقد تأثّر به الشّيخ تأثرا كبيرا وقال عنه:" أنّه سيدي وسندي"، لدرجة أنّه ألّف كتاب (إسعاف الرّاجي في بعض مآثر الشّيخ عبد الله الدّراجي).

أمّا شيوخه في الأزهر فهم كُثر يربو عددهم عن العشرة منهم أربعة بلغوا رتبة شيخ الإسلام، ثلاثة منهم اعتلوا كرسي مشيخة الأزهر.

بعد تلك الغيبة الطويلة دامت أزيد من عقدين قضاها في الزّيتونة والأزهر، عاد الشّيخ ابن مهنا إلى الوطن في سنة 1887م عاد بزاد علمي غزير، وأهمّ من ذلك كلّه أنّه أتى ببذرة الإصلاح التي زرعها جمال الدين الأفغاني ورعاها بل ونمّاها محمد عبدو وتلامذته في مصر وقد تأثّر بها شيخنا ووعاها فتبنّاها وطبّقها وجعلها الميزان الصّحيح في كلّ ما سيقوم به من نشاط علميّ، تدريسا وكتابة وخطابا وتأليفا فمنذ وصوله إلى أرض الوطن إلى قسنطينة بالذّات، التقطته زاوية الشّيخ بلقاسم بو حجر، وهي زاوية تقع في طريق عين البيضاء، فبدأ في التّدريس بها، فاشتهر اسمه بسرعة، فجاء كبراء قسنطينة، فطلبوا من شيخ الزّاوية تسريحه ليُعيّن مدرّسا وإماما خطيبا في الجامع الكبير بقسنطينة.

لقد منّ الله على شيخنا بتعيّينه إماما في الجامع الكبير، إذ قد فُتح المجال أمامه لتبليغ ما عنده من العلم والمعرفة والذكر وأكثر من ذلك من إصلاح وتجديد وتنوير وتهذيب للعقول وتنقية للأفكار ودعوة إلى العودة إلى كتاب الله وسنّة رسوله – صلى الله عليه وسلم – ونبذ الخرافات والشّعوذات والتّخريفات وما إلى ذلك، وكان يتخذّ الأساليب التي تتلاءم مع أذهان مَن يُلقي عليهم الدّرس، وكان يسلك مع العامّة الأسلوب العاطفي الذي يحرّك وجدانهم، ويختار الألفاظ التي تدغدغ عواطفهم.

وقد وسّع شيخنا مجاله التّعليميّ فلم يعد يكفيه المسجد وإنّما اتّخذ الزّاوية الحنصاليّة مقرّا دائما كذلك للتّدريس، أوّلا لتلامذته وفي جميع المواد وللعوام ثانيا التي تفد لسماع دروس الشيخ في التّفسير وفي الحديث النّبويّ الشّريف، وقد عدّه الدّكتور سعد الله من أشهر مَن تصدّى للتفسير في الجزائر.

لقد أحيت مناجاته ودروسه وخطبه الرّمم ونبّهت العقول وأزالت الغشاوة عن العيون وأيقظت النّائمين، ولكنّها أيضا أفرزت نحلة مضادّة شهرت أسلحتها في وجه الشّيخ وأفكاره وسنتعرض إلى ذلك بعد حين.

ومن هنا نفهم مقالة الأستاذ مالك بن نبي التي ابتدأنا بها والتي وردت في كتابه (شروط النّهضة)، ونفهم أيضا مقولة أخرى للأستاذ مالك بن نبي والتي جاءت في الفصل الأوّل من كتابه (الصّراع الفكريّ في البلاد المستعمرة) والتي وردت هكذا: " ففي الجزائر مثلا نرى السّتار يرتفع عن شعب لا زال يخدّره النّوم الذي أخنى عليه بضعة قرون إنّه الشّخصيّة الأولى ولكن في اللّحظة نفسها تدخل شخصيّة ثانيّة نطلق عليها الفكرة متجسّدة، تتمثّل في شيخين وقورين هما الشيخ بن مهنا والشّيخ عبد القادر المجاوي، يتقدمان على مسرح التّاريخ الجزائري بصفتهما أول بطلين في الصّراع الذي بدأ حينئذ ضد المرابطين والخرافات، ولما كان لظهورهما دوي كبير في البلاد جاءت شخصيّة ثالثة تدخل على آثارهما هي الاستعمار، فالاستعمار يدخل المسرح حتى يعيد إلى جوّه صمتا عميقا، ويحرص على بقائه كي يطيب للنائمين نومهم".

ولقد استمرّ الشّيخ بن مهنا في جهاده الفكري تدريسا وخطابةً، مما أثار انتباه السّلطات الاستعماريّة وكذلك مَن كانوا سادة وحماة للأوضاع الفاسدة المنحرفة دينيّا وعلميّا وثقافيّا فبدأوا بالتّململ أولا، ثم بالحرب المعلنة ثانيا، وقد بدأت هذه الحرب فعليّا بعد ما أكمل الشيّخ ابن مهنا حاشيته عن رحلة الشيخ الحسين الورتلاني المسماة (نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ والأخبار) التي طُبعت في المطبعة الحجريّة في ثلاثة أجزاء بتونس سنة 1903م ، تكلّم الشيّخ في حاشيّته هذه عن كلّ شيء تقريبا، ولكن ما يهمّنا نحن ما قاله الشّيخ في:

- الأشراف.
- التّصوّف وشيوخ الطرقيّة.

وسأقتصر على بعض أقواله في هذه الفصول:

شيخنا لا ينكر الشّرف الحقيقي وخاصّة إذا ما قورن بالعمل الصّالح وإنّما حمل حملة شعواء على الأشراف المزيّفين

الكاذبين المنتحلين لهذا النّسب بغيّا وعدوانا على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وعلى السيّدة فاطمة رضوان الله عليها والعترة النّبويّة الشّريفة، وهم كُثر، وقد أورد أمثلة كثيرة على هذا التّزوير وخاصّة في العهد العثمانيّ فيقول: "ذكرني مَن أثق به أنّ بعض قضاة الجزائر في العهد التّركي كان يأخذ عليهم 50 دينارا سلطانيّا ويكتب شجرة لمن أرادها من واحد أو جماعة أو عائلة أو قبيلة ليتخلّصوا بذلك من الظلم"، وإلى آخر ذلك من الأمثلة التي أوردها ، ثم ينتقل إلى ذكر عصاة الأشراف فيقول: " قد يغترّ الظّلمة من الأشراف والفسّاق منهم بشرفهم مع ظلمهم للأنام وتمرّدهم على الأحكام وعصيانهم للملك العلام ومخالفتهم لسنّة النّبي عليه الصّلاة والسّلام هيهات هيهات ما هو إلا غرور شيطانيّ وأحلام وأماني، إذ ليس الكلام في الشّرف نفسه ولا في الشّريف المتقي وإنّما هو في الشّريف الفاسق، كما أنّه ليس الكلام في العلم نفسه ولا في العالم العامل وإنّما هو في العالم الفاجر، كما يقول في مكان آخر".

يقول ابن مهنا عن التّصوّف في شرحه لابن عاشر: " علم التّصوّف علم بأصول يعرف بها إصلاح القلب وسائر الحواس وفائدته صلاح أحوال الإنسان لما فيه من الحثّ على تصفيّة الاعتقاد وكمال الأعمال بالسّداد"، ولكن شيخنا شنّ حملات شعواء على الذين يتّخذون من التّصوّف والطرق الصوفيّة شعوذة ودجلا ووسيلة للاسترزاق ويأتون بأعمال باسم الدّين وهي ضد الدّين للتمويه على العامّة وحتى على بعض الخاصّة، فالتّصوّف عنده ليس لبس الثوب المرقّع بل هو كما قالوا:

ليس التّصوّف لبس الصوف ترقعه

ولا بكاؤك إن غنّى المغنون

ولا صياح ولا رقص ولا طرب

ولا اختباط كأن قد صرت مجنونا

بل التّصوّف أن تصفو بلا كدر

وتتّبع الحق والقرآن والدّينا

وأن ترى خاشعا لله مبذلا

لذنوبك طول الدّهر محزونا

فالصّوفي الحقّ عند ابن مهنا لابد أن تتوفر فيه شروط علميّة بأن يكون عالما في التّفسير والفقه والحديث وأن يتّصف بصفات أخلاقيّة هي الزّهد في الدّنيا ومباهجها ومجاهدة في العبادة وألا يكون في قلبه غير الله ويجدّ في معرفة علم الظّاهر والباطن.

أمّا شيخ الطّريقة فإنّ ابن مهنا يرى أنّها صارت في زمننا هذا ملعبة في يد الأحداث والصبيان ومَن لم يصل إلى درجة النّسوان كرابعة العدويّة وشعوانة وغيرهما، بل صارت حرفة في أيد الجهلة الطّعام يأكلون بها الحرام ويُضلّون الأنام ويخوضون في البدع والآثام، وإتماما لذلك يرى الشّيخ ابن مهنا أنّ ثلاثة لا يفلحون في الغالب ابن شيخ الطريقة وزوجته وخادمه وننقل كلامه عن الابن فقط لأنّه هو الذي سيرث أباه في مشيخة الطريقة: " لأنّه يفتح عينيه على تقبيل المريدين يديه وحمله على الأعناق والتّبرك به ويطيعونه في كلّ ما يطلبه فتكبر نفسه ويرفع من حبّه للرئاسة صغره فتتوالى عليه الصّفات المظلمة فلا يؤثّر فيه وعظ الواعظ ويتجرّأ على الأكابر وينفي مشيختهم عليه".

هذه الموضوعات الثّلاث هي التي أقامت الدّنيا ولم تقعدها وأسالت من الحبر، ما أسالت وأحدثت أعنف معركة من هذا النّوع عرفتها الجزائر كما يقول الدكتور سعد الله، وطبعا كان للإدارة الفرنسيّة باع طويل في كلّ ذلك، وقبل أن استمر أودّ أن أقول بأنّ الشّيخ ابن مهنا رغم ثورته على المشعوذين والدّجالين كان يقدّر الأولياء حقّ قدرهم ولا يرى مانعا في زيارتهم والتّبرك بهم ولا ينكر الكرامات للأولياء الصّادقين وقد رأينا كيف يُجلّ الشّيخ الحسين الورتلاني.

لقد كانت لآراء ابن مهنا وأفكاره وجرأته في طرح هذه الأفكار ردود فعل متباينة فإن كانت هناك طائفة معتبرة من الطّلبة والعلماء ومن المثقفين عامة من تقبّلها ورأى فيها الطّريق القويم لإحياء الدّين والرجوع إلى المنابع الصّافية لديننا الحنيف، فإنّ هناك مجموعة أخرى وقفت ضدّه وضدّ آرائه الإصلاحيّة ربما لأنّها فاجأتهم فلم يستوعبوها وربما أنّ بعضهم قد رأى فيها تهديدا لمصالحه، وربما كان منهم مَن يتكلم بصوت سيّده، فقد جنّدت الإدارة الاستعماريّة الموظفين الدّينيين لهذه المهمّة، ليسوا كلّهم طبعا، وبعض العلماء المحسوبين على الطّرقيّة وشيوخها، فتصدّوا للرد عليه، من الجزائر، ومن خارج الجزائر، في الجزائر يأتي على رأس القائمة الشّيخ عاشور الخنقي، مؤرخ وشاعر الأشراف الذي ألّف كتابا ردّ فيه على ابن مهنا سمّاه (منار الإشراف على فضل عصاة الأشراف ومواليهم من الأطراف)، ويأتي الآن دور شخص مجهول قسنطيني اختفى تحت اسم مستعار يدعى (هيان بن بيان) وضع كتيبا سمّاه (كشف النقاب في الرّد على الوسلاتي الكذّاب) في 28 صفحة طُبع في المطبعة الحجريّة لم يذكر اسم المطبعة ولا تاريخ الطباعة ولا اسم الكاتب، واكتفى بأنّه صحيح الإيمان هيان بن بيان، وقد وضع ابن بيان كتابه هذا بعد أن نشر الشّيخ ابن مهنا (رسالة إظهار الحق) جوابا على الأسئلة التي وجهت إليه من طرف الإدارة الفرنسيّة مما يدلّ على أنّ هذا المجهول قام بما قام به تلبيّة لطلب ساداته.

ويقول ابن مهنا على هذا الكتاب وصاحبه: "إنّها رسالة مجهولة ألّفها بعض الحسدة ولم يصرّح فيها باسمه وهي تدلّ على أنّ مؤلفها إباحي لأنّه أباح فيها المحرّمات، ولو كان مؤلّفها على حقّ لصرّح باسمه ولم يجعل نفسه لقيطا بين المؤلفين"

نأتي الآن على دور إخواننا المغاربة في الرّد العنيف على الشّيخ ابن مهنا لأسباب واضحة، وأوّلهم مفتي فاس الشّيخ محمد المهدي العمراني الوزاني الفاسي في كتابه (السّيف المسلول باليد اليمنى لقطع رأس ابن مهنا)، ثم مغربي ثانٍ هو الشّيخ محمد العابد بن سودة بكتاب سمّاه (سنان اليراع ببنادق القرطاس في نحر من جازف وسبّ النّاس) ثم ثالث الشّيخ عبد السّلام العمراني.

ردّ الشّيخ ابن مهنا:

وقد ردّ الشّيخ بن مهنا عليهم جميعا بكتب، الرّد الأوّل كان على المفتي الفاسي بكتاب سمّاه (السّيف المهنّد المسلول لقطع رأس المهدي المغربي الجهول) في 260 صفحة، الرّسالة الثّانية الصغرى (الفتح الرّباني في الرّد على المهدي المغربي الوزاني) طُبعت في مصر سنة 1909م، آخر ما نذكره للشّيخ ابن مهنا في ردّه على خصومه وهو كتاب مخطوط وهو مختصر من الرّسالة الكبرى المعنونة (تحقيق الدّعوى والرّد على أعداء التّقوى)، والمعنون (تنبيه المغترّين والرّد على إخوان الشّياطين) استفتحه بقوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ الآية 6 من سورة الحجرات، وقد كانت الإدارة الفرنسيّة وجّهت للشّيخ أسئلة تتعلّق بأفكاره وآرائه التي يبديها في دروسه وفي كتبه وخطبه الجمعيّة فأجابها برسالة سمّاها (إظهار الحق في الأجوبة التي أجبت بها الدّولة الفرانساويّة) جاء في أوّلها: " بسم الله الرّحمن الرّحيم وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلم فهذه الرّسالة لطيفة سميّتها (إظهار الحقّ في الأجوبة التي أجبت بها الدّولة الفرانساويّة) وبالله التوفيق والهدايّة إلى أقوم طريق" هذه المعركة لم يخضها الشيّخ ابن مهنا وحده بل وقف معه علماء آخرون نذكر منهم العلامة الضّرير ذو التآليف الكثيرة محمد بن عبد الرحمن الدّيسي المتوفي سنة 1921م فقد ردّ على الشّيخ عاشور بكتاب سمّاه(هدم المنار وكشف العوار).

لقد استّمرّت المعركة الطّاحنة بين العالم المصلح ابن مهنا الذي تعرّض في دروسه وكتاباته إلى أمور تُعتبر مقدّسة عند بعضهم وبين المدافعين عن الموروث التّقليدي ولو كان يتعارض مع الأسس الدّينية، وتعرّض ابن مهنا لضغوطات شديدة ولكنّه تمسّك بموقفه ودافع عن آرائه، فانقسمت الأمّة إلى معسكرين فبلغ السيل الزبا، ورأت الإدارة الفرنسيّة أن حان الوقت لتضرب ضربتها، فنقلت الشّيخ المجاوي الذي كان يُدرّس بالجامع الكتاني بقسنطينة إلى المدرسة الثّعالبية بالجزائر، وعزلت الشّيخ بن مهنا من منصبه كإمام في الجامع الكبير بقسنطينة، بل اعتدت عليه بالقوّة العسكرية في بيته واستولت على مكتبته التي لا تقدّر بثمن، كما يقول الدكتور عمار طالبي وأخذتها إلى دار العمالة، وكان ذلك على الأرجح في 1897م أو 1998م، وكان يوما مشهودا، إذ تنادى طلبته وسكان قسنطينة، واحتشدوا أمام بيته وقرّروا الاعتراض لرجال السّلطة ومنعهم من أخذ الشّيخ، لكنّ الشّيخ بن مهنا الذي يقدّر العواقب، وبشجاعته التي عُرف بها

ورزانته ورباطة جأشه، ألقى كلمة على المجتمعين، وطلب منهم الهدوء والصّبر، ولقد أعدّت له ملفا ثقيلا لتقديمه للعدالة مدعّما بالشّهادات التي قدّمها للسّلطات الموظفون الدّينيّون وأعداؤه، لولا وقفة القسنطينيين.

وقد أولت السّلطات الاستعمارية اهتماما كبيرا لمكتبة الشّيخ، إلى درجة أنّها استقدمت أحد المستشرقين الذي كان نائبا في البرلمان الفرنسي، ليتصفّح مكتبة الشّيخ ليعرفوا من أين يستمدّ أفكاره التي يبثّها في دروسه، لكنّ هذا المستشرق بعد أن تصفّح المكتبة كان نزها فأنكر العمل الذي قامت به الإدارة، وطلب منها أن تعيد المكتبة إلى المكان الذي أُخذت منه وأُعيدت المكتبة بالفعل إلى مكانها، وقد أُبعد الشّيخ عن الجامع الكبير لمدة تزيد عن ثلاث سنوات ثم أُعيد إليه بعد بضع سنوات، لقد تحوّلت المناجاة الفرديّة لابن مهنا إلى معجزة البعث تتدفق من كلمات ابن باديس كما يقول الأستاذ مالك بن نبي في مقدمة كتاب (شروط النهضة).

كتبه:

الشّيخ بن مهنا غزير الإنتاج وكثير التأليف فقد أورد سليمان الصّيد في كتابه عن الشّيخ قائمة تضمّ 67 مخطوطا بين كتاب ورسالة وخمسة كتب مطبوعة قليل من علمائنا مَن ترك وراءه مثل هذه الذّخيرة، ولقد ألّف في كلّ العلوم المعروفة والمتداولة في زمانه؛ ألّف في الفقه وفي التّفسير وفي الحديث وفي التّوحيد وفي السيرة النّبويّة وفي علوم الحديث وفي النّحو وفي التّاريخ وفي الرّحلات وطبعا في الجدال وفي التّرجمات، ولكن تضلّ حاشيته على رحلة الورتلاني أهمّ تأليف له.

توفي شيخنا في 11 أبريل 1910م في داره بقسنطينة رحمه الله وجزاه عن الإسلام خير جزاء.

الأستاذ: رابح دوب

المصادر:

1- صالح بن مهنا القسنطيني (حياته تراثه) سليمان الصّيد. دار البعث. قسنطينة 1983
2- الموسوعة الجزائريّة. مجلد الأعلام.